الذوق الفنى عند إدموند بيرك

لم يكن بيرك فيلسوفاً بالمعنى الاصطلاحى لهذه الكلمة ، ولكنه كان خطيباً ومفكراً سياسيًّا من طراز رفيع . ولقد غلبت عليه صفته الخطابية السياسية حتى أوشك المؤرخون ألا يذكروا له سوى كتبه فى السياسة ، ومواقفه فى البرلمان ، وهو يتدفق بلاغة ، ويهاجم الحكومة الإنجليزية فى سياستها إزاء الهند ، وإزاء الثورة الفرنسية ، وإزاء المستعمرات البريطانية فى نصف العالم الغربى ، تلك المستعمرات التى هبت فى وجه بريطانيا فيما بعد ، وأصبح منها ما يعرف الآن بالولايات المتحدة الأمريكية .

هم يذكرون له تلك المواقف ويعرضون للمجلدات الضخمة التى خلفها بيرك ذخيرة للنثر الإنجليزى ، ولكنهم قلما يذكرون هذا البحث الفريد الذى كتبه فى إبان شبابه ، والذى وضع به أساس فلسفة الجمال فى تاريخ الفكر الإنجليزى ، والذى فتن به عملاق الفلسفة الحديثة ايمانويل كنت ، فهمّ بأن يترجمه إلى الألمانية لولا أنه أطال التفكير حتى وافته المنية قبل أن يخرج عزمه من حيز القول إلى حيز الفعل .

ولقد كتب بيرك هذا البحث وهو فى هدأة من هدآت النفس التى تجنح فيها إلى التأمل ، وتعرض فيها للمدركات الحسية ، وتحاول أن تستقرى منهـا قوانين عامة تفسر بها ظاهرة من ظواهر الوجود . كتبه وهو يتنفس الجو العقلى الإنجليزى المتوارث الذى ينفر نفوراً شديداً من المنطق النظرى ، ويعرض ما استطاع عما وراء الطبيعة ، ويجعل من المادة وانعكاساتها الذهنية مجال البحث والتفكير .

إن من الناس من ينكر وجود ذوق عام ، ويقرر أن الذوق مسألة شخصية نسبية ، وأن ليس لها ضابط ولا معيار . ومنهم من يذهب مع القائلين بأن الذوق العام موجود ، ولكنه شئ ليس فى الكتب ، أى هو شئ يمكن إدراكه

بالممارسة والاختبار . فما هو الذوق ؟ وما أصوله فى النفس البشرية ؟ وما هى عناصره وضوابطه العقلية التجريبية ؟ . . .

إن الذوق هو الملكة العقلية التى نحكم بها على قيم الفنون الجميلة ومنتجات الخيال . وهذه الملكة العقلية تعود بجذورها إلى الحواس التى ندرك بها ما يحيط بنا من العالم الخارجى ، والتى هى السبيل الوحيد عند بيرك وعند عامة المفكرين الإنجليز ، للمعرفة الإنسانية .

الحواس إذن هى أساس الذوق الفنى . ونحن إذا تأملنا هذه الحواس وجدنا تكوينها العضوى يكاد يكون متماثلا عند الناس كافة ، ومن ثم كان إدراكها للمحسات يكاد يكون متماثلا ، فالناس يتفقون على أن هذا نور وذلك ظلام ، وأن هذا حلو وذلك مر ، وقل مثل ذلك فى الضخم والهزيل ، والصلب واللين ، والساخن والبارد .

و إذا كان تأثر الحواس متقارباً فكل ماينجم عنه من ألم ولذة متقارب كذلك . و إنك لترى البشر يتفقون على أن الصاب مر وأن الشهد حلو ، ولا يختلفون على ما تحدثه هذه المؤثرات فى الحسية من لذة وألم ، بل إنهم يجمعون على وصف الحلاوة بأنها لاذة والمرارة بأنها كريهة . نعم ، إن هناك أسباباً كثيرة تسبب انحرافاً عن استطابة المطعومات الطبيعية اللاذة والإقبال على مذوقات كريهة بذاتها ؛ فقد يفضل امرؤ بحكم العادة طعم التبغ على طعم السكر ، ونكهة الخل على نكهة اللبن ، ولكن هذا لا يغير الحكم على الصفتين الأصيلتين لهذين المطعومين ما دام هذا المرء يحس أن التبغ ليس حلواً ، وما دام يعلم أن العادة وحدها هى التى سهدت الذوق لتلك الملذات الدخيلة . و إنك لن تجد امرأً يقول إن للتبغ طعم السكر ، أو أنه لا يستطيع التمييز بين الخل واللبن ، أو أن للتبغ والخل حلاوة وأن اللبن مر والسكر حامض . ولقد يصف لك صديق فاكهة جديدة فلا يقول لك : إن لها شذاً كأريج التبغ ، أو يصف لك زهرة نادرة فلا يقول : إن لها عطراً كعبير الثوم ؛ لأنه يعلم أن استطابة التبغ والثوم إنما هى لذة شاذة أو مكتسبة . ولقد نتج عن الخلط بين الملذات السليقية والملذات المكتسبة أن قال أناس بأن الذوق ليس له ضابط ولا معيار . والواقع أن الذوق يصعب وضع قاعدة له عند إصدار الأحكام الدقيقة على مدركات الحواس ، أى إن الإنسان لايستطيع أن يجيب إجابة دقيقة صحيحة عن أثر مطعوم ما فى ذوق شخص معين ،

ولكننا نستطيع ولا ريب أن نناقش الأشياء اللاذة بطبيعتها والأشياء المنفرة للحواس بطبيعتها ، ونستطيع أن نميز بينها وبين ما ينتج اللذة الشاذة أو المكتسبة إذا بحثنا عن العادات والتغرضات والتوعكات التى ألمت بصاحبها .

وكما يتفق الناس فى المدركات المطعومة يتفقون فى تذوق مدركات البصر ؛ فإن لذة الضوء أبلغ من لذة الظلام ، وإن الربيع المزهر المشرق ليبعث فى نفس الناظر نشاطاً وأريحية لا يجدهما فى الشتاء العبوس ، وإنك لتعرض حيواناً أو طائراً أو نباتاً على قوم كثير فيجمعون على استحسانه أو على استقباحه ، ولو أنهم قد يختلفون فى درجة ذلك الاستحسان وهذا الاستقباح .

وعلى هذا الاستقراء نرى الأساس واحداً فى لذة الحواس ، جميعاً فننتقل من مرحلة الحواس إلى مرحلة الخيال .

إن للعقل الانسانى قوة فعالة تحتفظ بصور المحسوسات فى الذهن على نفس النسق والترتيب الذى وصلت به إلى الذهن عن طريق الحواس ، أو بتركيب هذه الصور على هيئة جديدة ونسق جديد ، وهذه القوة تسمى الخيال ، وهى عاجزة كل العجز عن الابتكار المطلق والاستحداث من العدم ، وكل قدرتها أن تنوع وتنسق ما تتسلمه من الحواس .

والخيال هو مراح اللذة الفسيح ، وميدان الآلام والمخاوف ، ومثوى جميع ما يتصل باللذة والألم من عواطف . وما دامت اللذة الخيالية تحدث من صور المدركات اللاذة ، والألم الخيالى يحدث من صور المدركات المؤلمة ، فان كل مؤثر طبيعى خارجى يؤثر فى أخيلة الناس أثراً متقارباً أو متشابهاً ، على نفس القاعدة التى تلتذ بها الحواس أو تتألم من المؤثرات الخارجية . وينتج من هذا أن هناك اتفاقاً أو تقارباً فى الأخيلة البشرية يساوق اتفاق الناس أو تقاربهم فى الاحساس .

واللذة والألم الخياليان إما أن يكون سببهما مؤثراً طبيعيًّا خارجيًّا أو إدراك الشبه بين صورة خيالية وصورة حقيقية واقعية ، وليس للخيال مصدر لاذ أو مؤلم سوى هذين ، وهما يوجدان على درجة متقاربة عند البشر جميعاً . وقد لاحظ لوك أن سرعة البديهة ، وهى خاصية خيالية ، تنتج من القدرة على تتبع وجوه الشبه ، وأن النقد العقلى يعتمد أكثر ما يعتمد على تعرف المفارقات ومواطن الخلاف . واستدل على ذلك بأنك قد ترى شيئين مختلفين فلا يتأثر خيالك لأن الاختلاف بين الأشياء هو عين ما تتوقع . أما إذا رأيت شيئين متشابهين فقد

يأخذك الاهتمام ويتمشى إليك السرور . والخيال يجنح بطبعه لجمع المتشابهات لأن فى جمعها إضافة وثروة ونماء ، أما مراقبة الفروق فليس فيها تحديد ولا إضافة ، ولكنها عمل مضجر متعب ، إذ أمر لذة فهى لذة سلبية عوجاء . ولما كانت اللذة أو الألم الخياليان الناتجان عن المؤثرات الخارجية فى الحواس وعن إدراك الشبه بين الصور الخيالية والصور الواقعية ، لما كانت تلك اللذة وهذا الألم عملية سليقية ؛ طبيعية فاننا نرى الشعوب البدائية الفطيرة تميز على غيرها فى التشبيهات وتأتى منها بالمعجب المطرب على رغم عجزها عن تمييز الأفكار وتنسيقها ، ونرى شعراءهم لا يعنون بالحقائق بل تأخذهم المماثلة العامة بين الأشياء فيرسمونها بألوان صارخة زاهية .

و إذا كانت لذة إدراك المشابهة هى أهم ما يسترعى الخيال فان أكثر الناس إذن يتساوون فى هذا المجال ، ولا يفرق بينهم إلا وفرة نصيب بعضهم من إدراك التماثل والمشابهة ، وهذا أمر يتفاوت بتفاوت التجربة والملاحظة . ومن هذا التفاوت ينتج ما يسميه بعض المفكرين تنافراً فى الأذواق ولا تنافر هناك .

إن الرجل الساذج يبتهج ويبهت إذا رأى أى تمثال لانسان ، لا لشئ إلا لأنه يرى شيئاً شبيهاً بالبشر ، وهو يستغرق فى هذه المشابهة حتى إنه لا يتنبه إلى ما قد يكون بالتمثال من قصور . فاذا تعلم ذلك الرجل وزادت تجربته ورأى ذلك التمثال بعينه فانه قد يزدريه ويعجب بتمثال أدق من الأول صنعاً ، فيخيل إلينا أن ذوقه قد تغير ، والواقع أن ما أعجب به فى الحالتين واحد ألا وهو المماثلة بين التمثال والإنسان .

ولقد زعموا أن إسكافاً شهد لوحة نابغة تمثل ملكا على عرشه ، فأعجب بها وتملكه الطرب ، ولكنه أرشد الرسام إلى خطأ فى رسم حذاء الملك ، وكان هذا الخطأ قد فات ملاحظة الفنان العبقرى ، فلم يكن هذا اتهاماً لذوقه ، و إنما هو مجرد قصور فى علمه بصناعة الأحذية . ومن هذا نرى أن هذين الرجلين و إن تفاوتا فى العلم قد اتفقا على لذة ناجمة عن المشابهة بين الصورة والأصل . ولا ريب فى أنه يمكننا تقدير الفارق بين لذتيهما إذا علمنا مبلغ تجربة كليهما ، تلك التجربة التى تعين على إدراك المشابهة . وعلى هذا يكون الذوق عاماً فى أصله ثم يحدث بعض التفاوت الذى لا يعجزنا أن ندرك مبعثه وأسبابه .

إن الرجل الدارج ليقرأ ملحمة شعبية فتتملكه النشوة ولا يفطن لما يصادفه

من الإحالات المنطقية والاساءة إلى الفضيلة وامتهان الحقائق الجغرافية . وليس السبب فى هذا الخطأ هو ضعف خياله ، وإنما السبب هو ضعف المعرفة بالمنطق وعلم تقويم البلدان .

إن أصول الذوق واحدة عند الناس جميعاً مادام الذوق من خصوصيات الخيال وليس بينهم من فارق فى وسائط التأثر ولا أسبابه . ولكن هناك فارقاً فى درجة التأثر ينشأ من سببين جوهريين : تفوق فى الحساسية الطبيعية ، أو إمعان فى العناية والانتباه . فلو أنك قدمت خواناً من الرخام إلى رجلين فلمساه بأيديهما لأدركا انه ناعم واتفقا على الحكم بنعومته ، فاذا قدمت لها خواناً أكثر نعومة فانهما قد يتفقان على أن الخوانين ناعمان ، ولكنهما قد يختلفان فى أيهما أشد نعومة . فالتفاوت فى الذوق إذن يبدو حين يصل الأمر إلى الموازنة والمضاهاة ، أى فى أمور تتعلق بالكيف أكثر مما تتعلق بالكم . وهنا نتلفت لنبحث عن الحكم الذى يفصل فى الأمر عند الاختلاف ، فنجد العقل على أهبة الاستعداد.

ويأتى دور الأحكام العقلية بعدم إدراك اللذة الحسية واللذة الخيالية . فاذا أتى دورها انصبت على صلات تلك اللذات بعضها ببعض ، وكانت هى الفيصل الذى يقدر الانحرافات التى تعرَّض لها الذوق العام الذى أوشك أن يعد عند بعض المفكرين أذواقاً أشتاتاً .

فعلة الذوق الفاسد خلل فى الحكم العقلى . وهذا الخلل قد ينجم عن وهن فى الفهم والتمييز ، وقد ينشأ عن قصور فى الخبرة والممارسة . وعلى الرغم من أن هذه العوامل تنبت خلافاً فى الحكم يتناول كل مسائل الفهم والادراك ، فانها لا تدعونا إلى إهدار أصول المنطق ، ومن ثم لا تدعونا إلى إنكار الأصول الذوقية العامة . ولعل الدليل الأكبر على وجود الأصول الذوقية العامة أنك ترى البشر أقرب إجماعاً على استحسان جمال الطبيعة منهم على خطأ الفلسفة الأفلاطونية أو صوابها .

محمد عبد العزيز السحاره